سعيد السريحي

الرُّويس

جداول Jadawel

سعيد السريحي

الرُّويس

Jadawel جداول

الكتاب: **الـرُّويــس**

المؤلف: **سعيد السريحي**

جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

تشرين الأول/أكتوبر 2013

ISBN 978-614-418-216-1

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2013 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

إلى ذكرى الصديقين
زكي سالم دريب
وسليمان معتوق مناع

سقطنا بين مرحلتين..

سقطنا بين بداوة تموت وحضارة لم تولد بعد..

بين بداوة لم نعد نعرفها وحضارة لم تعترف بنا.

هكذا نحن أبناء الرويس ..

آباؤنا... أولئك الذين فرّوا من جدب القرى ووحشة الصحارى وبؤس السواحل... لم يجدوا في قلب المدينة متسعًا لهم فاستوطنوا الهامش... دنوا من المدينة دنو المحتاج إليها والمرتاب فيها...لا تغنيهم ولا يستغنون عنها، بينهم وبينها سور له باب، وبينهم وبين قراهم أرض يباب، عاشوا على هامش المدينة، كما عاشوا على هامش القرية، هامش مدينة لم يعرفوها وهامش قرية لم تعد تعرفهم.

بين الهامشين ولدنا ..

وعلى الهامشين عشنا ..

أشباه بدو وأشباه حضر..

نتأرجح بين هؤلاء وهؤلاء.

نجالس أجدادًا يتسربون إلينا مساء في الحكايات، موشومةً بالمعارك والقتلى والثارات والنخل وعيون الماء

وقوافلَ من النوق تمتد عبر صحارى تعزف فيها الريح والجن، وسواحلَ، حين تكتمل استدارة القمر، يتمشى فيها الذين ماتوا غرقًا...

ونرافق آباء نراهم صباحًا يخرجون منكسرين يبحثون عن لقمة العيش خلف أسوار المدينة أو وراء أمواج البحر ثم يعودون مساء محملين بفتات من الزاد وحكايات جديدة للمساء عن ذكريات الأجداد، يرأبون بها عزة أهدرتها قسوة المدينة أو وطأتها أحزان من ذهبوا إلى البحر ولم يعودوا.

هكذا كان الرويس .. مصطرعًا بين بادية تغزل الحكايات ليلًا ومدينة تنقض الغزل صباحًا...

مكتوبٌ على أهله أن يدخلوا المدينة، ما عاشوا، كما دخلها آباؤهم أول مرة، مسكونين بغربة من لا ينتمي لتاريخها ولا تعترف بتاريخه... يدخلونها حاملين في صدورهم صحراء تعوي فيها الريح والرمال وهم يعبرون أزقتها القاطنة في الرطوبة وأسواقها المرقومة بالترف.

هكذا عشنا نحن أبناء الرويس..

بدوٌ...

إذا ما ضمّنا مجلس مع بعض أولئك المتجذرين في تحضرهم من أهل جدة، رحنا نذرع المسافة بيننا وبينهم ثم نستكين استكانة المعترفين ببداوتهم فنسميهم «الحضر»...

حضرٌ...

إذا ما جمعنا مقام مع من يفد إلينا من أهلنا في البادية، أولئك الذين بقوا مستعصمين بقراهم النائية صابرين

على الحياة تحت ظل نخلة يرقبونها تجف سعفة سعفة وقطيع من الأغنام لم يعد يجد في كلأ الأرض ما يمنع عنه الموت جوعًا...

حضر بدو عشنا ..

ولم يكن حضر جدة يعترفون بنا...

وبات أهلنا في البادية يرتابون فينا..

بين هؤلاء وأولئك عشنا ...

انتهينا إلى أن نكون بدوًا في عيون الحضر وحضرًا في عيون البدو...

ولم نكن نعرف من نحن ...

حضر.. بدو.. بدو... حضر.

ثم لا ننتمي.

إلى أيٍ من ذلك كله.

كأنما الرويس وأهله محطة عبرها التاريخ ونسينا فيها حين ارتحل.

على الأفق الشمالي لجدة كانت تلوح بيوت الرويس... تلك التي آوى إليها آباؤنا حيث ألقت بهم أقدارهم... أكواخ من القش وصندقات من الخشب وبضع بيوت من الطين والحجر....كلٌّ بنى من سعته، أو كلٌّ بنى من ضيقه، يتفاوتون في مقدار الفقر الذي يوحد بينهم جميعًا على اختلاف القبائل التي تناسلوا منها والقرى التي حملوا جثامينها معهم حين جف الماء وانقطعت بهم فيها سبل الرزق ....

في فناء كل بيت من بيوت الرويس قبر مضمر يضم رفات قرية ماتت أو جنازة مهيأة لقرية تنتظر الموت.

كأنما غافلهم البحر فاختبأ في رحالهم يوم رآهم يهمون بالرحيل عنه، أو كأنما حملوه هم معهم، بينه وبينهم نسب وميثاق، يعرفونه كما يعرفون أنفسهم، ينادونه بأسماء شعابه وخلجانه وقواقعه وحيتانه، ينادونه بأسماء من انتهوا غرقًا فيه من آبائهم وأبنائهم، ويناديهم بأسمائهم واحدًا واحدًا، يستدرجهم حتى إذا ما اطمأنوا إليه انقلب عليهم يأخذ أرواح بعضٍ منهم ليعطي بعضًا منهم ما يعيش به.

الراحلون من قرى السواحل، حين ألقت بهم أقدارهم على بعد ميلين من جدة، نصبوا بيوتهم ونصبوا البحر كذلك، مدوه ما يسع لهم نظرهم مده حتى انتهى إلى الأفق، كلما احمرّ شفقه عند المغيب تطيروا: ثمة مذبحة وموت هناك، وأشارت أصابعهم إلى دم يفور في الأفق...

ولم يكن الموت هناك، كان الموت هنا دائمًا، كأنما ما يشهدونه على الأفق دماء غرقاهم تلوّح لهم عند خاتمة النهار حين يعود الصيادون إلى بيوتهم مخلفين إياهم في جوف البحر، والرويس الذي كانت له مقبرتان كان البحر مقبرته الثالثة.

حين انبسط البحر أمامهم مدّ إلى الأرض يدين، كأنما

كان وعدًا بالحياة والموت في آن: ها يداي لكم...خذوهما معًا أو دعوهما معًا..

وما كان لهم من خيار سوى الحياة بالبحر والموت فيه.

انبسط البحر فتمخض عن رأسين شمال جدة، سموا الكبير منهما «راس القحاز» ولم يطلقوا على الثاني اسمًا، صغيرًا كان لم يحن وقت تسميته بعد، كأنما رأوا فيه واحدًا من أطفالهم لا يخلعون عليهم اسمًا حتى يبلغ يومه السابع، فإذا بلغه رفع مؤذن الأذان في أذنه اليمنى وأقام الصلاة في أذنه اليسرى ثم يهمس له:

ـ سماك الله ...

ويطلق عليه ما اختاره له أبواه من الأسماء.

مرّ البحر بالعمر، أو مرّ العمر بالبحر، ولم يبلغ رأسه الصغير سبعًا، لم يرفع مؤذن الأذان في أذنه اليمنى ولم يقم الصلاة في أذنه اليسرى، بقي رويسًا صغيرًا لا ينازعه في دلال الاسم منازع، فاض بوصفه على اليابسة فأصبحت هي كذلك الرويس، كأنما هي قطعة من الأرض ولدت من جوف البحر.

تركوا بين رويس البر ورويس البحر مسافة، صفحة من كتاب الرمل يودعونها خطاهم كلما خرجوا للصيد، آخر آثارهم على الأرض، وصاياهم لمن تركوهم خلفهم يرقبون عند غروب الشمس عودتهم، أو يتلون صلاة الموت على من غيب البحر منهم.

تتبارى بنات الحي:

ـ هذي خطوة أخويا محمد، أراهنكم.

تتضاحك البنات، يتهامسن:

ـ عرفتيه من شان إنه أعرج.

ـ طيب هذي خطوة أبويا..قولوا إنه أعرج.

وحين تذهب الريح بآثار بعض الراحلين يتطيرن ويعدن إلى بيوتهن مكسورات الخاطر، يخفين عن أمهاتهن ما أوحت إليهن به الريح.

يقال حين غاص عوض ليحرر شباكه من شعاب البحر صعدت بقعة دم تخبر رفاقه في البحر ألا ينتظروا عودته، وحين أخبروا أمه بموته ركضت تمرغ وجهها بأثر خطوة تركتها قدمه على باب البيت حين غادر البيت صباحًا، وعلى أثر الخطوة الثانية كفأت قدرًا كلما استبد بها الحزن كشفت القدر ومررت أصابعها على حواف الخطوة تبرّد على قلبها ببقية ما ترك لها البحر منه..

يوم أن هبت الريح وقلبت في غفلة منها القدر ومحت ما تبقى من عوض سارعت جارة لها تطلب من ولدها أن يطبع أثر قدمه حيث كان القدر ويعيده على ما كان عليه، وحين كشفت أم عوض القدر صرخت:

ـ والله ما هي ريحة ولدي.

ـ صلّي على النبي يا أم عوض..

هتفت بها جارتها وهي تحاول أن تردّها إلى بيتها والسكينة:

ـ والله اللي في سماه ما هي ريحة ولدي.

وعرف بعدها أهل الرويس أم عوض المجنونة تدور بين البيوت تسأل الناس إذا كان أحد منهم يعرف متى يعود عوض من البحر.

أما حامدة التي لا يراها جلساؤها إلا محنية الجسد في جلوسها، كأنما هي ترفع من سجود أو تهم بالسجود، فيقولون إنها حين بلغها خبر غرق ابنها الوحيد خرت ساجدة تربط على قلبها بالصلاة، وحين رفعت من سجودها توقفت في منتصف المسافة، وقضت بقية حياتها معلقة بين الجلوس والسجود:

ـ كسر الموت ظهرها.

هكذا كانت الأمهات يخبرن بناتهن عنها سائلين الله أن يعوضها بالجنة على صبرها..

وكنّ يتغامزن حين تروي لهن أم عوض المجنونة كيف أنها رأت حامدة تطوف بالكعبة منتصبة القامة وتزاحم الطائفين لتقبل الحجر الأسود، يتظاهرن بتصديقها فهن يعلمن أن أم عوض لم تذهب إلى مكة مذ مات ولدها واختل عقلها...

فاطمة حين عادت من العمرة همست في أذن أمها:

ـ ترى أم عوض صادقة، أنا شفتها تطوف.

ـ من ؟

ـ جدتي حامدة

ـ سمي بالرحمن.. يخلق من الشبه أربعين

ـ وي..يعني ما أعرف جدتي.. والله لو كانوا أربعماية ما هو أربعين ما غلطت فيها.

ـ طيب لا تقولين لأحد.

ولـم تـعـد فـاطـمـة وأمـهـا تتغامزان حين تروي أم عـوض المجنونة أنها رأت حامدة تطوف بالكعبة منتصبة القامة، ثم تضيف:

ـ وقالت لي أسلم لها عليكم.

حفر محمد أحمد البحر على لوح الفصل، كاد اللوح ينضح ماءً، وشم سطح الماء بجزيرتين: أبو سعد والواسطة..

لم يكن محمد أحمد يستعيد الجزيرتين من دروس المدرسة، كان يستردهما من حكايات الآباء عن جزر يستغيثون بشواطئها حين يناصبهم البحر العداء وتهدد الريح قواربهم، يستعيدها من ذكريات الآباء والأمهات يوم أن نزحوا عن الرويس حين وجدوا أنفسهم على حافة الحرب أيام حصار جدة فكانت الجزيرتان أقرب خندق يلجأون إليه...

ابتعد محمد أحمد قليلًا عن اللوح، وابتسامة المعلم التي قلما يحظى بها ترسم نجمة على جبينه، عاد إلى اللوح، تردد قليلًا وبيد مرتعشة وشم البحر بجزيرة ثالثة، سأله المعلم عن اسمها:

ـ ما لها اسم..

ـ ما لها اسم؟

ـ جدتي قالت ما لها اسم.

تضاحك الصبية:

- جدتك تعرف جغرافيا؟

سقطت من على جبينه النجمة وعاد إلى مقعده.

* * *

ضمّت عابدة طفلها إلى صدرها، زرقاء بدت قدمه من طرف عباءتها، أقسمت وهي تسند ظهرها إلى سارية المركب:

- يمين بالله ما أترككم ترمون ولدي، تاكله الحيتان.

ثلاثة أيام مرت على موته، ازرقت أطرافه وبدأت رائحة الموت تفوح منه، ظلت عابدة تحتضنه حين تنام، تلفه بطرف عباءتها، تحويه بذراع وتسند رأسها إلى ذراع، كلما شعرت بخطوة تقترب منها ضمّته إلى صدرها وأحكمت طرف العباءة حوله، وحين تستيقظ تحمله بين ذراعيها، تبحث عن ظل تستظل به وحين لا تجد غير حمأة الشمس تظلل طفلها بطرف عباءتها، وتجلس ترقب خطوات القادمين إليها وترقبها أعين من يحاولون إقناعها برمي جثة الطفل في البحر.

ثلاثة أيام والبحر لايزال طوقًا يحيط بهم من كل صوب ولم تلح في الأفق جزيرة يوارونه فيها:

- إكرام الميت دفنه يا عابدة.

هتف بها زوجها وهو يمد يده لأخذ الجثة منها، فرت إلى طرف المركب، كادت تسقط في البحر، سقط قناعها:

- استري نفسك.

صرخ بها أحد الذين شوت الشمس جلودهم، أعادت قناعها وازدادت تشبثًا بجثة طفلها:

ـ دفنه... دفنه ما هو رميه في البحر.

ـ من فين لنا أرض ندفنه فيها وكل هذا البحر حولنا؟

ـ أدفنه في صدري وما أترككم ترمونه للحيتان.

كانوا قبل إبحارهم من جدة قد تهيأوا للموت، حملوا معهم حجارة أقاموها مقام الأكفان، كلما خطف الموت واحدًا منهم ربطوه إلى حجر ثم أودعوه جوف البحر قبرًا له:

ـ ما نعرف له قبر نقرا عليه الفاتحة.

قالها حامد وهو يراهم يربطون جثة أخيه إلى حجر ويهمون بقذفها في البحر:

ـ اقرأ عليه الفاتحة وتوصله في أي مكان.

ـ ما هي مسألة إنه توصل له الفاتحة أو ما توصل له.. أنا.. المهم أنا.. كيف أوصل له إذا رحتو كلكم لزيارة أهلكم في المقبرة صباح العيد؟

ارتجف الواقف إلى جوارهما والحمى تسري في أطراف كلماته:

ـ والله ما ادري الواحد يوصل لقاع البحر أو تنهشه الحيتان قبل ما يوصل.

ومسح بطرف عمامته بحيرة ملح تلألأت على خده اجتمع فيها ملح البحر وملح الدمع وملح العرق.

في اليوم الرابع لاحت لهم في الأفق جزيرة فانحرفوا نحوها، حين اقتربوا منها قفزت عابدة من على سطح القارب حاملة طفلها بين يديها، ترفعه عاليًا فلا يبتل بالماء، تشبثت بطرف الجزيرة وبيديها حفرت قبرًا له، قبلته على جبينه ثلاثًا، حاولت أن تسبل يديه إلى جانبيه فلم تستطع تركتهما متصلبتين مضموتين إلى صدره، سجته إلى جانب كثيب من الرمل ووقفت تصلي عليه صلاة الجنازة..

أجهش الذين كانوا يراقبونها من على سطح المركب بالبكاء وسأل واحد منهم:

- هي تعرف صلاة الجنازة؟

- ربها أدرى بها يتقبل منها حسب نيتها.

- بس اللّي أعرفه إنه صلاة الجنازة ما فيها ركوع ولا سجود.

- أقول لك ربك أدرى بها.

وحين رأوها تودعه التراب سألوا الله أن يربط على قلبها بالصبر.

نصبت على قبره حجرًا، انحنت قبلت الحجر ثلاثًا ثم عادت إلى المركب، بقيت موليةً وجهها شطر الجزيرة حتى طواهم البحر وغابت خلف الأفق، سألتهم عن اسم الجزيرة:

- ما لها اسم

اختصروا الإجابة ومضوا في طريق غير قابل للاختصار.

* * *

ركض محمد أحمد خلف الأستاذ حين فرغ من الدرس:

ـ يا أستاد.. تعرف اسم الجزيرة؟

ـ أية جزيرة؟

ـ الثالثة.. .جدتي قالت لي أسألك يمكن تعرف.

هز المعلم كتفيه فسقط جبين محمد.

لا يكادون يتذكرون موقع الرويس الأول
مولده يوم أن خرج من زبد البحر
مهاده الأول حيث توالدت أحياؤه أو حاراته

غير أنهم لا يخطئون آثار قدميه يوم أن كان يسعى صعودًا حاملًا اسمه وقاطنيه مستقبلًا السهل الممتد على تخوم الشرق، كلما طاب مس الأرض لقدميه الحافيتين خلع على المكان اسمه وأشار لمن معه: هذا منزلٌ لكم فأقيموا.

«حلة ابن سعيد» كانت تلوح في الأفق الشرقي، غامضة غموض ابن سعيد، لا يعرف أحد من أين جاء حين نصب بيته ذات مساء، ولا يعرف أحد أين رحل حين خلا منه بيته ذات صباح، يتذكرونه يركض، كلما همت الشمس بالغروب، بين السهول الممتدة شرقًا يستعيد أغنامه من مراعيها ويلحق بأخته المجنونة يردها إلى البيت قبل أن تشتد العتمة وتفترسها الذئاب التي كان الظلام والجوع يغريانها بالاقتراب من حظيرة الأغنام.

من حلة ابن سعيد كانت تترامى إلى أسماعهم صرخات أخته المجنونة صباحًا، ويلوح في الأفق غبار قدمي أخيها يركض خلفها في المساء، واستيقظوا ذات صباح، لم تطرق

أسماعهم صرخات المجنونة، وفي المساء لم يروا غبار قدمي أخيها . .

ترك ابن سعيد اسمه وسمًا للمكان وغادر، يقال إنهم حين وقفوا على صندقته، بعد أيام من مغادرته، وجدوا دمًا طازجًا لا يزال يفور، قالوا دم كبش، وأقسم عبد الحميد أن له رائحة دم إنسان فتعجبوا من الدم ومن قدرة صاحبهم على تمييز دم من دم . .

عادوا أدراجهم تاركين الكلاب تلعق الدم الذي اختلفوا حوله، والحكايات تعشش كالعنكبوت في أرجاء المكان، واستيقظوا مرة أخرى ذات صباح فوجدوا الريح قد اقتلعت الصندقة ولم يعثروا لها على أثر.

اختلفوا بعد جيلين في تحديد موقع الصندقة غير أنهم اتفقوا على أنهم يسمعون في بعض الصباحات صرخاتٍ لا يعرفون مصدرها تأتي من جهة حلة ابن سعيد.

حين هبط القادمون من وادي ينبع وبواديه الرويسَ حلوا ركابهم قريبًا من حلة ابن سعيد، سموا المكان الذي نزلوه «النزلة»، كما كانوا يسمون منازلهم في قراهم التي جاؤوا منها، نأوا بأنفسهم وبيوتهم عن ملح البحر واستروحوا في نسمات السهل شيئًا من النسيم الذي كانوا يعهدونه في قراهم. . .

تلح عليهم الغربة فيستعصمون في نزلتهم بما يسري في دمهم من إرث، كلما زادت الغربة في ترويعهم ازدادوا به استعصامًا، يشعرون أنهم يمتازون به عن غيرهم، يختلفون عمن نزلوا قريبًا منهم اختلافًا لا يكاد يراه سواهم، شعرة دقيقة تحفظهم كما هم، كلما تشابهوا مع غيرهم فتشوا عما يختلفون فيه عنهم ثم لا يلبثون أن يعدوا ذلك الاختلاف ميزة، حتى اللهجة، أصبحت للرويس لهجتان:

ـ سمعتِ خديجة؟

ـ لا، ايش بها؟

ـ صارت تتكلم زي أهل الرويس، تقول قِعدت وقِلت. .

ـ خلاص من يوم ما أخذها واحد منهم صارت تتكلم زي أهل زوجها

ـ أبويا يقول الناس اللي أصلهم من ثول وذهبان يتكلمون كذا.

ـ كلام أهلنا في ينبع غير، نقول قَعدت وأكلت

ـ الحمد لله، كلامنا ما هو ملوي زي كلامهم.

وحين يلتقي شباب النزلة بأندادهم من شباب الرويس لا تحول بطونهم التي امتلأت بأسماك البحر دون أن تتلبسهم نظرة الاستعلاء التي كانت تتلبس أجدادهم الموغلين في البداوة أو المستغرقين في الزراعة فيرون أنفسهم أعلى قدرًا، بما يمتلكون من مزارع النخل وقوافل النوق، من «صيادي الملاليص»، ولم يكن صيد البحر بالنسبة لهم سوى هذه الملاليص التي لا تفي بحق الضيف ولا تليق بكرم الضيافة.

ترتفع عقيرة أحدهم:

أهل الرويس يا قرامش حوت ورجالكم بشبش الساحل

يتلعثم قليلًا ثم يمضي متفاخرًا بالنزلة:

والنزلة اللي تعلت فوق لعلها بالسعد دايم

يرتبك حين يهمس له صديقه:

ـ القافية ما هي راكبة

يضحك عبد الحميد الجالس في ظل جدار بيته ينظف شباك الصيد:

ـ يا بدو.. لو ما قرامش الحوت كان مت من الجوع إنت وأهلك.

ـ ما شا الله عليك، عاد إنت الحضري المولود في حارة الشام؟

ينهره الواقف إلى جواره:

ـ عيب يا ولد، الرجّال قد أبوك.

ولم يكن للرويس أن يترك النزلة، وقد نزلت غير بعيد عن حماه، تستقل باسمٍ لها، خلع عليها اسمه فكان وجهها البحري وكانت وجهه البري، اجتمع له بها البر والبحر معًا، وانشطر بذلك الرويس إلى شطرين: الرويس التحتاني والرويس الفوقاني، وبينهما مسافةٌ إن عبرتها امرأة رأى فيها القادمون من البر هودجًا، ورأى فيها الخارجون من البحر مركبًا:

مركبْ عرضْ لي وانا شفته بين الرويسين متقرِّبْ
والحاية أزيبْ مناكفته بالحيلْ بالجوشْ متغلِّب

مال على كتف أمه يسألها:

ـ أيش يعني الحاية أزيب مناكفته؟

ضحكت:

ـ يعني خلاص.. عرفت كل الكلام وما بقي عليك إلا إنك تعرف ايش يعني الحاية أزيب مناكفته؟

ـ ما عرفت كل شي، بس هذي مرة غريبة

ـ الحاية أزيب مناكفته يعني الهوا اللي جاي من اليمن منازعه ومعانده.

ـ يا لطيف، هو الهوا اللي جاي من اليمن يوصل عندكم؟

ـ بلا غشامة، من اليمن يعني من هذي الجهة.

وتشير بيدها إلى الجنوب:

ـ هذي الجهة اليمن وهذي الشام وهذي القبلة وهذي بحر، ما كنا نعرف الاسماء اللي يعلمونكم اياها في المدارس.

ـ طيب أيش يعني بالحيل بالجوش متغلب؟

ـ يعني بالقوة ماسك الحبل اللي يربط الشراع.

ـ ما فهمت. .

ـ هو يوصف حرمة ماسكة مصونها والحاية تهب فيه.

ـ مُصْوَنها؟

ـ المصون اللي صرنا نسميه العباية بعد ما عرفنا الحضران.

تدفعه عنها وتنهض تتهيأ للصلاة:

ـ قوم الحق أبوك، سبقك للمسجد.

غرباء. . .

تلقي بهم مراكبهم كل مساء على شاطىء جدة، ينفضون عن أجسادهم ما علق بها من ملح البحر وملح التعب فتنتفض جدة تقززًا من ملح البحارة، لا ترى فيهم غير ما حوته قواربهم من الصيد، يقايضون به قليلًا من الأرز وبعض السكر والقهوة والشاي، يعبرون شوارع جدة يتأملون بيوتها العالية ورواشينها الفارهة:

ـ نصيبنا في الجنة إن شاء الله.

ـ نجلس، نشرب شاهي؟

ـ يا شيخ اللي نشرب به شاهي نأخذ به عشاء لعيالنا. . .

كل خطوة يقتربون فيها من جدة كانت تبعدهم عنها، تزيدهم غربة، يكتشفون وينكشفون، غرباء يدخلونها ويخرجون منها أشد غربة، تنفضهم جدة خارج سورها كما تنفض سجادها من الغبار ثم تغلق وراءهم أبوابها، تغسل شوارعها من بقايا ملحهم وتعبهم وأسمالهم البالية.

يعودون إلى الرويس، كلما اقتربوا منه خطوة اقتربوا من أنفسهم خطوتين واستشعروا أن لهم حقًّا أن يمشوا على سطح هذه الأرض، وأن لهم حقًّا كذلك أن يملأوا صدورهم بهوائها.

بين حيهم وحياتهم في الرويس وبين جدة مسافة للوحشة، مساكن تأوي إليها الجن وأخرى للموتى، يسلكون طريقًا يمرّ بهم عبر المنقبة حيث اتخذت الجن مساكنها في الحفر التي نقبت جدة عن حجارتها تبني بها بيوتها وتركتها حفرًا فاغرة فمها تتخذ كل قبيلة من الجن واحدة منها سكنًا.

يستعيذ يوسف بالله وقد انحرفت به قدمه إلى واحد من مساكن الجن:

- الله يسكنهم مساكنهم.
- يا يوسف ترى الناس صاروا أخطر من الجن.
- الله يكفينا شرهم كلهم.
- ترى هذي الحفر ما هي كلها مناقب.. تدري؟
- أدري، كثير منها حفروها العسكر، أيام ما حاصروا جدة في الحرب بين الشريف وابن سعود.
- تفتكر عطية؟
- من عطية؟
- عطية بن حسين، نسيته؟
- رحمة الله عليه، ايش جاب طاريه؟
- افتكرته، هو وعبد الغني وحسين أبو يد لما لقيوا في المنقبة قنبلة من أيام الحرب ما نفجرت، بغوا يفككونها ويبيعون حديدها ونحاسها وانفجرت فيهم، مات عطية وانقطعت يد حسين أبو يد وطارت ثلاثة أصابع من يمين عبد الغني.
- يقولون جابوها من خرابة القلل من جدة، ما هو من المنقبة.

- مرة يقولون من خرابة القلل ومرة يقولون من المنقبة، والله أعلم

- هم خاطروا بأنفسهم في شيء ما يعرفونه.

- لا تقول إلا خير، لو ما كانوا محتاجين ما خاطروا بأنفسهم.

- صدقت، الله يرحمنا برحمته.

- ما سبقونا إلا بيومهم، هي درب وكلنا سايرين فيها.

- من اللي سبقونا؟ اللي مات عطية، عبد الغني وحسين أبو يد بخير عايشين.

- صحيح بس عبد الغني خلاص، كبر، ما عاد يقدر يسرح البحر، ما غير جماعته ياخذون شواره وصخاويه ويرمونها في البحر واللي ربي يرزقه به يبيعونه ويعطونه قيمته.

يمرون بمقبرة النزلة، يولون وجوههم شطر القبلة، يقرأون الفاتحة على أرواح آبائهم وأمهاتهم الراحلين ويسألون الله أن يلحقهم بهم «على شهادة وحضره من المسلمين»:

- اللهم اجعل بيتي بين بيتين وقبري بين قبرين.

يتمتم صالح، ويضحك مهدي:

- خايف تموت في الخلا ياكلك الذيب؟

- لا والله، خايف ألحق اللي سبقوني، أموت في البحر وتتغدا بي القروش.

- وصيتكم لو مت احفروا لي جنب قبر ولدي.

- المكان اللي تندفن فيه مكتوب لك قبل ما تنولد، ما تحتاج توصي، خلي عنك الوساوس.

ـ الوصية حق وانا أخوك.

ـ على ذكر الذيب، سمعت بخالة لافي بن يوسف؟

ـ سمعت إنها ضاعت، خير؟ لقيوها إن شاء الله؟

ـ لقيوها آكلها الذيب في الخبت بين بيت بنتها في بني مالك وبيت ولدها في النزلة اليمانية.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، الجوع خلَّى الذياب تقرب من البيوت، ما عاد في البر غنم ولا ضان يشبعها.

ـ الجوع كافر وأنا أخوك، يخلي الناس تاكل بعضها.

ـ الجوع والوجع أهون منهم الموت.

يتذكرون سنة الرحمة يوم أن فتك بهم الوباء، أحاطت سنتها جدة الرويس بسياج لا يخرج من أهله أحد ولا يدخل عليهم أحد، حفظت لهم جدة وباءهم يفتك بهم فتقاطروا على المقبرة كلما دفنوا جماعة منهم ألقت لهم أبواب البيوت بجماعة آخرين، نفض عبد الحميد يده من تراب القبر:

ـ يا ترى تدفني أو أدفنك يا منصور؟

ـ الله يتولانا برحمته.

تمتم منصور وهو يمسح دمعة فضحت حزنه، ولم يدفن أي منهما الآخر، في اليوم التالي حملوهما معًا إلى المقبرة:

ـ سبحان الله، عاشوا، سوا مثل الإخوان، وماتوا في يوم واحد.

ـ جيران في الدنيا والآخرة إن شاء الله.

الرويس. . .

اسم زحف من البحر إلى البر.

وقيل بل زحف من البر إلى البحر. .

كما كان ماء البحر رويسًا كان رمل الشاطىء رويسًا كذلك. .

يتبادلان الاسم ويتبادلان المواقع كلما عنّ لهما أن يلعبا لعبة المد والجزر.

الرويس. .

ماء يتقدم في الأرض.

أرض تتقدم الماء.

هياكل من الماء في هيئة الطين.

ماء جففه الشمس فكان طينا.

شمس تتزاور بين الماء والطين.

سكن القادمون من شواطىء البحر، ممن غلب عليهم طبع الماء، الرويس

وعلى مسافة ميل منهم نزل في البر الذين غلب عليهم طبع الرمل، أولئك الذين جاؤوا من أودية جبلت أجسادَهم من

طينها حين كان تمْرُ نخيلها، قبل أن يغور الماء، يعبر ميناء ينبع متجهًا إلى من يلوّحون له بأيديهم على شواطىء مصوّع وسواكن ومحمد قول والسويس. .

تشير صلوح بعصاها:

ـ شايف هذا الزير؟

ولم تكن هي ترى ذلك الزير، ذهب بصرها بعد أن جفّف الحزنُ دمعها:

ـ الله يعوضها على صبرها بالجنة، اثنا عشر ولد وبنت وما بقي لها غير بنت وحدة.

ـ كيف ماتوا؟

ـ اللي بالجدري واللي بالحصبة، وثلاثة سنة الرحمة، زبيدة، ماتت بحمى النفاس، عوض الله صابته عين ما صلت على النبي، راح مع أبوه البحر وما أمسى عليه الليل إلا وهو في قبره.

قال عوض لأمه وهو يتلوى من الألم:

ـ لما قال لي اللي يشوفك ما يصدق انه عمرك عشرة سنين بس حسيت زي الرمح ينغرس في ظهري.

تسند ظهرها إلى الجدار:

ـ كان يقرا ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ لمّن مات، كان ينازع في الروح ويقرا حتى طلع السر للإله.

تأخذ نفسًا عميقًا ثم تسأل:

- هذي الآية في أية سورة؟

- والله ما أدري يا جدة

- بشروني لمّن مات، قالوا لي إنه قرّب يختم المصحف.

تشير بعصاها مرة أخرى:

- شايف الزير؟ هذا الزير من السويس، جابه جدك لمّن تجوّز أمّونة بنت الجمل، أبوها كان من تجار مصر، كانت متجوّزة قبل جدك، الله يرحمها، لحقناها عجوزة واحنا بنات صغار، تنصحنا:

- يا بنات لا تغتروا بالدنيا، كنت إذا شفت بياض ساقي أقول ربي ما خلق مثلك يا أمونة، أجلس في روشان بيتنا وأنثر الفلوس من الروشان وأضحك لمّن اشوف الناس، كبار وصغار، يتسابقون من شان يجمعونها، واللي ما لحق ياخذ شي يرفع راسه يطلب مني أنثر ثاني.

تمسح أمونة العرق عن جبينها وتستغفر الله:

- لما مات ولدي كفنته بكفن حرير.

تضحك سعدى:

- الظاهر يا جدة إنك إنت اللي ضيّعت فلوس جدي فوزان.

- جدك فوزان ما رزقني ربي منه بذرية، اللي كفنته بالحرير ولدي البكر من جوزي الأولاني في السويس.

وكان اختفاء أموال فوزان مصدر حيرة وحسرة للورثة من أبنائه، أخذ، حين يئس من عودة الماء لمزارع النخل في ينبع

وطاب له المقام في الرويس، يبيع تلك المزارع مزرعة مزرعة، اشترى نسيان على مشارف الرويس، ولا أحد يعرف ما صنع بباقي قيمة ما كان يبيعه من نخل ينبع، ولم يكن أحد يجرؤ أن يسأله، وحين كان يحتضر حف به أبناؤه وأحفاده، غالب غصص الموت وأشار إلى فناء بيته:

ـ سبعة أزيار. . سبعة. .

نبشوا الأرض بعد موته سبع مرات، ولم يعثروا على شيء، وفي كل مرة كانت الخنافس تتكاثر حيث يحفرون، يقولون ما بنوا بناء حيث أشار إلا وأتت عليه النار، وما رقدت في ذلك المكان دابة إلا وجدوها في الصباح وقد نفقت.

طلب منهم قارىء المندل، وكان شيخًا مغربيًا استعانوا به، أن يحضروا له غلامًا من عبيدهم:

ـ على بلوغ، بس باقي ما بلغ.

مسح على جبين الغلام بزيت كان يتمتم عليه ببعض الطلاسم:

ـ غمّض عيونك.

ومسح على جفني الغلام، تمتم بكلمات لم يفقهها أحد من حوله، فتح الغلام عينيه، انقلبتا، بيض كأن لا حدقة لأي منهما، تمتم وعاد يمسح جبهة الغلام بالزيت، شابت بياضَ عينيه خطوطٌ وخيوطٌ من الدم، تسايل الزبد من فمه:

ـ ايش تشوف؟

ـ سبع زيار

ـ ايش فيها؟

ـ جنيهات ذهب

ـ وايش تاني؟

ـ عليها حارس

ـ ايش يطلب

ـ دم

هز صاحب المندل الغلام من كتفيه فأفاق:

ـ زياركم أخفتها الجن.

ـ وايش نسوي؟

ـ تعطونهم طلبهم.

ـ ايش طلبهم؟

ـ دم، سمعتو ايش قال الولد.

ـ دم؟

ـ تذبحون لهم عبد..

التفت إلى حيث لا يزال الغلام ذاهلًا يمسح عن جبينه الزيت:

ـ في عمر هذا الولد..

سقط الغلام مغشيًا عليه، رشوا عليه الماء:

ـ الله بيننا وبينهم.

أفاق الغلام، ولم يفيقوا من حلم أن ترفع الجن يدها ذات يوم عن أزيارهم وتعيد لهم إرثهم المفقود.

حين ضاقت بهم أسباب العيش وانغلقت أبواب الرزق وارتحلوا من أوديتهم وسواحلهم اصطحبوهم معهم، وما كان لهم أن يخلفوهم وراءهم أو يتخلفوا هم عنهم، فإما أن تفيض الحياة عليهم جميعًا، وإما أن تضيق بهم، وعنهم، جميعًا.

كانوا في زمن الرغد عونًا لهم في البحر إن أبحروا وفي الحقل إن زرعوا، يتقاسمون معهم لقمة العيش وعرق الجبين وليالي السمر، أكثرهم كانوا ميراثهم من آبائهم وأجدادهم في زمن الغنى، وقليل منهم لم يبخل زمن الفقر بهم فكانوا رفاقًا في الصبر على ضنك العيش:

ـ كيف اشتريته؟

سألوا عبد المعطي وقد عاد من السوق مصطحبًا غلامًا وهو من لا يكاد يجد ما يطعم به أبناءه:

ـ والله النصيب.

ـ النصيب؟

ـ رحت السوق ومعي كيس حب، ما لقيت أحد يشتريه، وأنا راجع قابلت رجال معه هذا الولد، عرضت عليه كيس الحب، قال ما عندي غير هذا العبد، أعطيته كيس الحب وأخذت الولد.

ـ أنت ما تلقى اللي تأكّل به عيالك تقوم تزيد عليهم ولد؟

ـ الله يطعمنا ويسقينا.

ـ انت أصلًا من وين جاك كيس الحب؟

ـ من باب الله

ـ وإيش تبغى تسميه؟

ـ فرج.. عسى الله يفرجها علينا.

وعرف الرويس صبيًّا جديدًا، فرج، وأطلقوا عليه لقب بلاش، يستغرق فرج في الضحك كلما مازحوه ونادوه بما لقبوه به يذكّرونه بكيس الحب الذي تمت مقايضته به.

يتباهون بهم كما يتباهون بأبنائهم وعدد نخيلهم وقواربهم، يخلعون عليهم من الأسماء ما يحمل لهم وعدًا بفأل حسن: مبارك.. مبروك.. مبيريك.. عبد الخير.. خيرالله وللنساء منهم من الأسماء مثل ذلك: مبروكة.. مبيريكة.. سلوانة.. يلحقون أسماءهم باسماء قبائلهم إلحاقًا بين تأكيد الولاء وتكريس الامتلاك.

يسميهم الناس عبيدًا لهم ولا يرون هم فيهم غير أنهم منهم، لكبيرهم مقام الوالد وللصغير مكانة الابن، لم تكن تربطهم بهم علاقة استعباد بل حالة ولاء وانتماء لا تنفصل عراه، وإذا ما عنّ لأحد أن يعتق عبده أو يحرر جاريته لم يغير العتق شيئًا مما بينهم فيبقى الود والانتماء والولاء يوثق ما بينهم من علاقة، لم تكن العبودية قيدًا ليتحرروا منه ولم تكن عبئًا فيلقوه عن كواهلهم، العبودية والحرية مفرغتان من المعنى، حالتان لجماعتين يجمع بين أفرادها قدر واحد.

يقولون أوقف ممثلون لقنصلية بريطانيا الغلامين الأسودين ساعد ومبيريك، وقد أغرتهما أسواق جدة بالتوغل فيها:

ـ عبد أنت أو حر؟

ـ حر.

قالها ساعد دون أن يتحقق من معناها أو مما كان ينوي ممثلو القنصلية القيام به بناء على الإجابة، ألقى مبيريك نظرة على يده، سوداء، ولم يكن مفهوم عبد يتجاوز الدلالة على سواد اللون.

فكر مبيريك، أعاد النظر إلى يده، مدّها إلى ممثل القنصلية البريطانية وكأنه يقول له ألا ترى:

ـ عبد.

عاد ساعد إلى أهله في الرويس، أما مبيرك فلم يعد إلا بعد عشر سنوات، وقضى بقية عمره يحدث الناس كيف أن النصارى الذين سألوه أرسلوه بعد ذلك لبلاد أهلها كلهم سود، حيث لا يعرف أحدًا ولا يعرفه أحد، عاش غريبًا وحين سمع عن قافلة ذاهبة للحج التحق بها كي يعود ثانية إلى أهله.

ـ أنا ما أعرف ايش دخل النصارى بيني وبينكم، ما يعرفون إنكم أهلي، شافوني أسود قالوا نرسله بلاد السود، والله ما عرفت أعيش معاهم.

ـ أنت واحد منا يا مبيريك، وترى كلنا عباد الله.

ـ تتذكرون عبد الخير؟

ـ رحمة الله عليه.

ـ مات؟

ـ من سنين. .

ـ الله يرحمه، تذكرته وأنا هناك. . كلهم مثله.

يستغرق في الضحك:

ـ كنتم تخوّفونا به، تعقل أو ننادي لك عبد الخير يأكلك.

❋ ❋ ❋

تراه فتشعر أنه خارج للتو من غابة
أو أنه يهمّ بدخول غابة
جذعه منكفىء إلى الأمام إن وقف
وإن مشى أصبح أكثر انكفاء
يداه توشكان أن تلامسا ركبتيه
إن أسدلهما إلى جانبيه
هسهسة ريح تتسلل بين أشجار كلماته
شلالات ماء أسود
تغور خلف حدقتي عينيه
عبد الخير غنم
لا يعرف أحد من أين أتاه لقبه
ولا يعرف هو من أين أتاه هذا اللقب
اختار له من سماه أن يكون عبدًا للخير
كأنما يستدعي باسمه خيرًا غائبًا عنه

وهكذا كانوا . .
تتغير أسماؤهم بتغير السادة
يتقلبون في الأسماء
حتى لا يصبح أحدهم عارفًا بالاسم الذي ولد به
ولا عالمًا بالاسم الذي سوف يموت عليه
عبد الخير . . .
لا يتذكر الاسم الذي سمّاه به أهله
ولكنه يتذكر أنه كان يدعى مبارك في زمن
وفي زمن آخر كان يدعى مبروك
ثم انتهى إلى عبد الخير
يتذكر ذلك كله . .
ولكنه لا يتذكر من أين انقاد إليه قطيع الغنم
عبد الخير . . حمل من أواسط أفريقيا ملامح وجهه
السواد الذي يتلألأ تحت وهج الشمس.
يتذكر:
كانوا يدهنون أجسامنا بالزيت قبل البيع.
العربية حين تنكسر على لسانه
تمتد انكساراتها إلى لغة أولى
يتخاطب أهلها بالأيدي والعيون وحركات الشفاه
وأصوات تأخذ شكل انفجارات متوالية
وذبذبات موغلة في العنف

عبد الخير . .
بقايا جذع شجرة أكلته النار من كافة جوانبه
عود محترق
أوراق خريف حملتها الريح
ألقت بها إلى شواطىء الرويس
يتكىء على سبعين عامًا
ويقال ثمانين عامًا
ويقول ما لا يقال
عن زمن الرق
عن زمن كان الخيار له فيه أن يكون عبدًا لسيده
أو عبدًا لسيد آخر
الفرار من العبودية رحلة نحو عبودية أخرى
لعبة لتغيير الأسماء والألقاب
كل لقب صك تملك
لا يدعيه معه أحد
عبد الخير غنم لم يكن يدعيه أحد
وحده حل ذات مساء على شاطىء الرويس
كلوح خشب من سفينة غارقة
يجمع أوراق عمره
يحكي عن بلد موغل في السواد
عن غابات لا يعرف في أي أرض هي

عن طفل
يجمع الحصاد
يقتسمه أبوه مع رجل
كان ذلك الرجل هو السيد والكاهن معًا
يقول:
الناس في بلادي لايعرفون الله
كانوا يعبدون الأشجار
يعبدون الأحجار
ويعبدون كاهنهم
سيدهم ذاك
يتقاسمون معه حصادهم
فإن لم يرضه ذاك تقاسموا معه أبناءهم
ويوم أن بخلت الأرض عليهم
أصبح الطفل
من نصيب الكاهن
يتذكر عبد الخير يوم أن حملوه مقيدًا
كانوا يمسكون بأمه وهي تعدو خلفه باكية
أبوه كان يتوارى خلف جذع شجرة
وإخوته كانوا يصرخون فزعًا...
في الحظيرة المسورة بالحراب والحراس
التقى الطفل بأطفال آخرين

لبثوا أسابيع في حظيرتهم تلك
حتى جاءهم من شدهم بحبل واحد
قادهم في قافلة طويلة عبر الغابات
وخلفهم من يلهب ظهورهم بالسياط إن تعثروا
ويوم لا تحمل طفل قدماه
يحلون وثاقه
يتركونه لمن يتولى أمره
فإذا أوغلوا في السير بعيدًا عنه
تناهت إلى أسماعهم
ضربة فاس
وصرخة مكتومة
وسباع تسعى نحو جثة طفل لم تحمله قدماه.
ليالٍ جاسوا خلالها ليل الغابات
حتى انتهوا إلى البحر...
قشعريرة تسري في جسد عبد الخير
يتذكر فزعه حين رأى لأول مرة رجلًا أبيض.
يقول:
ظننته في البدء إنسانًا مسلوخًا
لم تفزعه صرخات الذين خلفتهم القافلة
لم تفزعه الأشلاء التي كانوا يرونها في طريقهم
لم تفزعه السباع التي كانت ترسل شرر أعينها

وراء العابرين ليل الغابة
لم يفزعه شيء كما أفزعه أن يرى مسلوخًا.
مسلوخ يمشي
مسلوخ يتكلم. .
مسلوخ يأمر وينهى
يقودهم إلى البحر
إلى النهر العظيم الذي لم تكن له ضفتان
أخذ البحر قرابينه من الأطفال الذين عبروه
وعلى الضفة الأخرى مسلوخون ينتظرونهم.
تداولوهم بينهم
اقتسموهم
عبد الخير عود محترق
يزداد احتراقًا كلما روى حكايته في ظل كوخه
ثم ينهض متثاقلًا
ينكفىء جذعه إلى الأمام
توشك يداه أن تلامس قدميه
وفي خطواته رعب طفل
يخشى ألا تحمله قدماه.

* * *

يضحك سعد الله:
ـ يا خير الله أنت ما غيّرتْك الأيام.

ثم يلتفت سعد الله ويؤكد لمن حوله:

- بلادنا تراها غير، مسلمين وقبائل، مثلنا مثلكم، كنت خارج من منازل قبيلتي على فرس للصيد، أبويا كان شيخ القبيلة، طوقوني من كل جهة، يمكن كانوا عشرة رجال، كلهم سود ويقودهم رجال أبيض، قاومتهم، رماني واحد منهم بسهم صابني في عيني..

ويشير سعد الله إلى عينه المسملة:

- سالت عيني على خدي وما استسلمت لهم، قتلوا فرسي، ولمّن طحت على الأرض ربطوني بالحبال، في قفص شالوني من أرض إلى أرض..

ويطرق سعد الله، لا يسألونه عن بقية قصته فقد تعودوا منه أن يتوقف عند هذا الحد كلما حدثهم، يبدأ قصته مزهوًا بماض يريد لمن حوله أن يعرف ما كان عليه، وينتهي مكسورًا محمولًا في قفص، كأنه لا يريد أن يعترف بما انتهى إليه.

يقارنون بين أجسامهم النحيلة التي هدّها الفقر والجوع وجسم سعد الله ويسألون حمد:

- انت ايش تأكّله؟

ينفر من سؤالهم متطيرًا:

- اذكروا الله يا جماعة وصلّوا على النبي، تراكم تاكلون أكثر من اللي ياكله وأحسن من اللي ياكله، بس ربي مبارك له في أكله.

- تلقاه تربى على السمن والعسل، برى عظمه بري، وما هو بعيد إنه ولد شيوخ زي ما يقول.

ـ والله ما ادري، بس تظن انه عندهم شيوخ زي ما عندنا؟

ـ ليش لا، أنا سمعت إنه عندهم قبايل وعادات وتقاليد زيهم زينا، الله رزقك بولد شيوخ يا حمد.

ـ وانعم بالله، الله رحيم بعباده وعارف بحاجتي.

يتذكّر حمد حياته في البادية قبل أن ينقطع المطر وتجف الآبار ويموت الزرع:

ـ تعرفون ربي ما اعطاني عيال في شبابي، وعلى كبر رزقني بمحمد، خفت عليه، لو غابت عنه عيني يطمعون فيه عيال عمه والدنيا ما لها أمان، قلت اشتري لي عبد، عبد ما هو عبد، عبد خوي، عبد أخو، يقف معايا ومع ولدي في ساعة الضيم، نصحوني اروح مكة، وصلت دكة العبيد قبل ما يبدا الحراج، كانوا عارضينهم، الصغير والكبير، النحيف والسمين، الطويل والقصير، أشكال وألوان، شفت سعد الله، ولد مفتول، وقلت في نفسي هذا اللي يصلح لي، بس خفت يكون جسم بلا قلب، قلت أختبره، شفت عينه العورا، قربت وجهي من وجهه وتفلت في عينه العورا، وذاك حدّي بنفسي، قبل ما توصل التفلة لعينه صكّني بالكف وما عاد دريت بنفسي، صحيت والناس ترش عليّ الماء، وتلومني على اللّي سويته، قالوا لي لو ما لحقناك كان قتلك، لمّن بدا الحرج بديت أزيد في السعر حتى استقر البيع علي، بس لمّن شاف إني أنا اللي بيشتريه صاح: داخل على الله وعليكم، انتم عارفين اللي جرى بيني وبينه وما بيشتريني إلا من شان

يذبحني، بس أنا اعطيته الأمان وعهد الله وقلت له لو ما رديت علي بالكف ما اشتريتك لو عرضوك بريال.

ولم يفرق بين حمد وسعد الله غير الموت، قال لهم وهم يهيئونه للدفن:

ـ يا جماعة ما أبغاه يبعد عني.

ـ صلِّ على النبي يا حمد.

وتهامس بعض الشباب:

ـ الشايب خرّف.

طلب منهم أن يدفنوه قريبًا من بيته، حاولوا إقناعه بدفنه في مقبرة الرويس فأصرّ على رأيه، بعد عام كان حمد على فراش الموت يوصيهم:

ـ إذا مت احفروا لي وادفنوني جنب سعد الله، هذي وصيتي، أسالكم عنها يوم الدين.

وتكاثرت القبور بعد ذلك حول القبرين وتوزع أهل الرويس بين مقبرتين: المقبرة القديمة ومقبرة حمد الملاصقة لبيوتهم.

مال بظهره إلى بقية من جذع نخلة ركزه في ركن من فناء بيته، وأغمض عينيه...

يوم أن حمل على بعيره تلك البقية الباقية من جذع نخلة من سويقة في ينبع النخل إلى الرويس استغرب من حوله من فعله:

ـ ايش تبغى به يا فوزان؟

ـ ما لكم شغل..

قالها وهو يضحك ثم يقترب من الجذع، يمرر يده عليه، يرفعها إلى أنفه:

ـ لو تدرون... هذا الجذع ريحة أهلي باقية فيه.

ـ بس لو انك أخذت معك نوى من نخل جدانك وزرعته هناك كان أحسن وأفود.

دس يده في جيبه وأخرج كيسًا:

ـ هذا النوى، بس الجذع غير.

لم يكن يفتأ يتذكر يوم أمسك بيد جدته، جاس بها بين النخل حتى أوقفها حيث سألته عند النخلة السابعة من صف يمتد على يمين الخارج من العنقاوية ذاهبًا نحو العين، عمياء كانت، وضعت يدها على جذع النخلة السابعة:

- هدي النخلة لك، وصيتي لك، عطية حي لحي، يوم أموت وتشوفها تفتكرني، وتقرا لي الفاتحة. . سمعت؟

ويوم أن رأى تلك النخلة تجف سعفة سعفة شعر أن جدته التي ماتت من أربعين عامًا تموت مرة أخرى عضوًا عضوًا، ويوم أن هوى جذعها لم يدار دمعه غير خوفه أن يلومه من حوله يبكي نخلة ماتت وهم لا يعلمون ما يبكي، همّ أن يدفن الجذع ويقف على قبره يقرأ الفاتحة غير أنه آثر أن يحمله إلى بيته كلما مرّ به وقف قليلًا وقرأ الفاتحة.

أغمض عينيه وراح يحلم بالعنقاوية والعلقمية وخيف حسين وعين علي وبقع مسيلم وسويقة، بالنخل يمد إليه بطلعه قبل أن يمد إليه يده، بالحناء تتباهى به كفوف البنات صباح العيد، بعيون الماء مذ كانت تجري في الأرض رغدًا حتى جفت عينًا عينًا، كلما جفت عين فاضت عليها عيون من الدمع.

غفا قليلًا، رأى نخلًا يهبط من السماء، حناء يتمشى في السهل، وسدرا يهيىء ظلاله للعابرين، رأى أشجار ليمون ونعناع وشتلات ورد وفل، رأى الأرض تستدير من حوله جنةً، رأى ما رأى، وحين أفاق ضرب في اتجاه الشمال لا يلوي على شيء، غاب ثلاثًا، لم يعرفوا له أرضًا ولم يسمعوا عنه خبرًا، وحين عاد أخبرهم أنه اشترى أرضًا:

- اشتريت أرض؟ أحد يشتري أرض؟

- ايش تسوي بها؟

ـ بيتك كافيك. . ولو بغيت تتوسع الأرض من حولك، ما تحتاج تشتري.

ـ اشتريت أرض كبيرة . . بلاد كبيرة.

وأشار يده نحو الشمال:

ـ من طريق الحاج حتى رمية حجر في القحاز.

ـ أرض الشريف العلوي؟

ـ ايه، اشتريتها منه.

ـ عسى ما غلَاها عليك؟

ـ بكم اشتريتها؟

ـ بالصرة المجهولة.

كأنما عزّ عليه أن يكون لها ثمن به تُباع وبه تُشترى، كأنما عز عليه أن تكون مما يباع أو يشترى، كلما سألوه عنها أشار إلى الصرة المجهولة، وإذا ما عادوا يسألونه تصنّع أن يحاول أن يتذكر ثم يضرب على جبينه:

ـ راحت مع النسيان.

ولم تمض بضع سنوات حتى عرف الرويس «نسيان»، قطعة من أرض ينبع حملها الشوق على جناحه حتى بسطها على السهل الممتد شمالًا، أفق يمتد من طريق الحاج حتى يوشك أن يغسل ساقيه في ماء البحر في رأس القحاز، أفق يتباهى بنخله وسدره، بترابه ومائه وسمائه، ويتباهى به أهل الرويس، منه مطعمهم إن شاؤوا رطبًا جنيًا، ومنه مشربهم حين يفيض ماؤه عن حاجة الزرع فيه.

ولنسيان، يقولون، آبار سبعة، كانوا كلما بشرهم الماء يفيض من بئر حفروا بئرًا حتى استدارت سبعة آبار حول النخل، وجعل صاحب النخل عليها قيّمًا يسقي منها الناس والزرع إلا واحدة نذرها صاحب النخل لا يردها إلا من كان غريبًا، يقولون ما ألقى ابن سبيل فيها دلوه إلا فارت بالماء فامتلأ الدلو، فإن كان غير ذلك أصبح ماؤها غورًا.

وفي نسيان سدرة نبتت في جانبه الغربي، كان في ورقها للناس شفاء بأمر لله، يقولون تلا عليها حاج مغربي بعض أوراده حين انقطع به الطريق فأقام تحتها، لم يبرح الأرض سنينًا، عيناه شاخصتان إلى القبلة، لا يخرج من صلاة إلا ليدخل في صلاة حتى مات.

وقيل بل من تلا عليها الأوراد سيدة لا يعرفون منها سوى اسمها يجدونها تجلس تحت الشجرة حينًا وحينًا لا يجدونها، لا يعرفون من أين تأتي ولا يعرفون أين تذهب، ويوم أن وجدوها ميتة، كفها مضمومة على ما لا يعلمون، دفنوها غير بعيد عن السدرة واعتادوا بعد ذلك قبر خديجة يتواصون بالسلام عليها وقراءة الفاتحة كلما مروا به، ثم انطمس القبر فلم يعودوا يحققون له مكانًا فهم يتأثمون أن تطأه أقدامهم، كلما اقتربوا من الشجرة سألوا الله المغفرة، لا يقربونها إلا مضطرين لورقها، ينقعونه في الماء، يشربه مريضهم، أو يغتسل به، فيكون له فيه الشفاء بأمر الله..

ويقولون إن تلك السدرة في الجانب الغربي أول سدرة زرعت في نسيان، سبقت نخله وغيرها من السدر، وقيل بل

هي موجودة، كانت من قبل أن يكون، وحيدة تلوح في السهل الممتد بين طريق الحاج شرقًا ورأس القحاز غربًا.

أغلقت جدة أبوابها الستة، اختبأت خلف سورها واستسلمت للحصار، انقطع الطريق بين جدة والرويس، لم يعد هناك سوق يبيع صيادو الرويس فيه أسماكهم، ولم تعد هناك دكاكين يشترون منها الأرز والسكر والشاي الذي كان نديمًا لهم يشتكون إليه إن مسهم الشجن:

يا كاس شاهي عليك اشكي غــزالْ بــالــودْ كــاويــنــي
من حَرْ ما بي قعدت ابكي يــا كــاسْ مــنْ هُــوْ يــسـلـيـنـي

ولم يكن ما بهم حرّ الحب، ولم يكن للحب حرّ في غير أشعارهم، لم يكن ما بهم حرّ الحب بل حرّ الحرب التي لم يكن ليلها يبشر بصبح قريب:

- يا جماعة ترى إذا بقينا على هذا الحال متنا من الجوع.

- ما هو بس الجوع، الخوف من العسكر، وصلوا الى المنقبة، ما عاد هم بعيدين عنا..

- طيب ويش الحل؟

- نشدّ عن الرويس.

وتفرق أهل الرويس في الأرض، تسلل بعضهم إلى داخل السور، واتخذ بعضهم طريقه في البحر، تناثروا في الجزر

ومضى بعضهم حتى انتهوا إلى اليمن، وعاد آخرون إلى القرى التي جاؤوا منها.

وحين استسلمت جدة وارتفع عنها الحصار وعاد الطريق بينها وبين الرويس سالكًا وتهيأت البنقلة فيها لاستقبال الصيادين والدكاكين لبيع الأرز والسكر والشاي والقهوة عاد المهاجرون من أهل الرويس، يبنون من بيوتهم ما تهدم ويتذاكرون ما مرّ عليهم خلال تشردهم بين أزقة جدة وبراري القرى وجزر البحر وسواحل اليمن:

- رجعوا أمس أهل ثول.

- الله يصبرهم ويعوضهم، راح في الحرب منهم خلق كثيرين.

- مساكين، أخذوا حريمهم وعيالهم وراحوا للجزيرة المقابلة لثول، ولمّن هبت الصبا نشّفت البحر بينهم وبين البر، هجم عليهم العسكر وقتلوا كثير منهم.

رجع علي يحمل على كتفه محصول يومه لم يبع منه شيئًا، مال عليه عبد الرحيم:

- يا خوفي يخيس قبل ما توصل البيت.

- يخيس وارميه للبسوس تاكله ولا أبيعه لذاك الخسيس.

- بس ايش ذنب الناس الثانين، ما قالوا شي، انت اللي كأنه ركبك جني، لمّيت حوتك وصرت تصرّخ ماني بايع ماني بايع.

- يا شيخ لمّن شفته تذكرت اللي سووه فينا يوم ما كنا في جدة، والله الود ودّي آكلهم بسنوني.

- ما هم كلهم، لا تظلم الناس، ترى بعضهم كان يرسل لنا من أكل عياله.

- يرسلون لنا الفضلة اللي تبقى من أكلهم.

- لا تتبطر على نعمة الله، كنا نفرح بها، ناكلها ونحمد الله اللي سخرهم لنا.

- استغفر الله العظيم، بس أنت فاكر اللي سواه فينا الرجال اللي شفناه في البنقلة؟

- الأبيضاني اللي سألك بكم الناجل؟

- أيوه، فاكر؟

- فاكر، هي حاجة تنسى.

- والله ما أنسى ليلة رمى علينا القمامة من روشان بيته، الخسيس ما قدّر الحال اللي كنا فيها.

- الله لا يعيدها من أيام.

- حريمنا وعيالنا تحت شرشف ما يرد عنا حمو الشمس، والناموس، الدمامل تفتحت جروح فينا.

- يا شيخ والله ما ينلامون، ضيق وحرب وشح في الأرزاق، وجدّة تشيل مِنْ ولّا مِنْ، كل اللي حولها دخلوها، وبعدين تعرف انه تثوّب فينا بسواته، لولاه ما خرجنا في ليل اظلم وهجينا لليمن.

- يا شيخ ما وصلنا اليمن، حدنا القنفدة وحلي، اللي وصل اليمن كامل وجماعته.

- صحيح، فكرتني بكامل، هو ما رجع، عساه طيب؟

ـ ما عليه خلاف، بخير، يقولون تجوز من اليمن وصارت عنده وظيفه كبيرة.

ـ يعني ما بيرجع؟

ـ والله ما أدري.

ـ مهما كان الرجال ما له غير ديرته وأهله.

ـ يا شيخ خلّيه مرتاح حيث ما هو، لو جا وشاف اللي شفناه كان مات من القهر.

ـ والله قهر، حتى بيبان بيوتنا وسقوفها سرقوها.

ـ ترى حنا أحسن حال من الرويس التحتاني، زيادة على بيوتهم اللي انسرقت بيبانها وطياقها وسقوفها الملح أكل جدران بيوتهم وأساساتها.

ـ سمعت انهم يبغون يشدون من مكانهم.

ـ وين بيروحون؟

ـ ما هو بعيد، يبعدون عن البحر شوية بس.

ارتحل أهل الرويس عن الرويس، تركوه مكرهين حين لم يجدوا خيارًا لهم غير تركه بعد أن اجتمع على منازله الملح والحرب وعادت أطلالًا تحلق في سمائها الغربان وتنعق في جنباتها البوم، تركوه للملح ينقض ما تبقى من أساساته بيتًا بيتًا ويمحو ذاكرةً كتبت سطورَها أيامٌ من الحزن والفرح والصبر والجزع والموت والحياة.

رحلوا عن الرويس ولم يتبق لهم فيه غير مسجد الطوري، يوم أن رحلوا تعاهدوا أن لا يهجروا مسجدًا لا تزال تكبيرات أجدادهم الذين بنوه تتردد في جنباته، ولا يزال الحنين الكامن في صدور الواقفين وراء الجنازات في صلوات الموتى نديًا رطبًا لا تكاد الآذان تُخطىء زفراته، ولا تزال الصلوات على الموتى الذين غيبهم البحر معلقة في الهواء تبحث عنهم بين الأمواج.

رحلوا عن الرويس ولم تبق لهم فيه غير مقبرة حمد، واعدوا آباءهم وأجدادهم الذين سبقوهم إليها أن يلحقوا بهم فيها، وليس لهم أن يخلفوا وعدًا قطعوه على أنفسهم. .

غربةٌ هي أقسى عليهم من الموت لو أنهم قلّبوا أعينهم حين يقبرون فلم يروا فيمن حولهم أبًا يترقب وصولهم وابنًا يتلهفون لرؤيته. .

المقابرُ حبل وصل وليس لهم أن يقطعوا حبلًا يصلهم بسلف لهم ويحلّون أغرابًا في مقابر ليس بينهم وبينها نسب، ينكرون من سبقهم إليها وينكرهم من حلّ قبلهم بها.

لم يغادروا مقبرة حمد حيث كان موتاهم فيها أحياء، كلما هموا بحفر قبر جديد تكشف لهم قبر قديم يلقون على صاحبه السلام، يعتذرون منه، يعيدون إليه سكينة الموت أو يعيدونه إليها ويوصونه بجار جديد حلّ في القبر الذي يجاوره.

ـ دريت ايش اللي حصل أمس؟

يسأل عبد العزيز جاره وهما عائدان من صلاة المغرب ممهدًا بسؤاله لما يريد أن يخبره به:

ـ خير؟ ايش حصل؟

ـ انت ما حضرت دفن بنت أبو خليل؟

ـ لا والله، ما دريت إلا بعد ما رجعوا من المقبرة، خير؟

ـ لمّن حفروا القبر طلعت لهم جثة.

ـ لا إله إلا الله، تحصل كثير، من الجثث المرمسة.

ـ اي اللي يحصل انهم يلقون عظام مرمسة، يلمونها ويحطونها على جنب، بس اللي أمس لقيوها جثة زي ما هي كإنها اندفنت أمس.

ـ سبحان الله، ما تغيّرت؟

ـ يا شيخ كنها أمس اندفنت، الكفن أكله الملح والجثة زي ما هي.

ـ جثة من؟ عرفتوا صاحبها؟

ـ كان معنا عبد المعطي قال إنها جثة حامد بن أحمد.

ـ من حامد بن أحمد؟

ـ ما لحقنا عليه، يقول مات قبل أكثر من أربعين سنة، على أيام الأتراك.

ـ لا إله إلّا الله.

ـ وقال إنه لما بنوا مسجد الطوري واحتاروا في تحديد القبلة جاب لهم حامد بن أحمد إسطرلاب البابور وحددوا به القبلة.

ـ صدقت، أنا سمعت عن الإسطرلاب.

ـ ما هو بس كذا قال إنه كان يحفظ القرآن.

ـ اي والله، اللي يحفظون القرآن لحومهم محرمة على الدود.

غادر أهل الرويس الرويس ولم يغادروا مقبرة حمد، بيتهم الموعود مهما طال بهم العمر وتراخى بهم الأجل، وموطن أحزان توارثوها عن آبائهم، في كل شبر منها راية للحزن وفي كل ركن فيها مقام للموت:

ـ هنا دفنا مسعود وعياله الأربعة سنة الرحمة.

ـ وهنا قبر سلمى ماتت ليلة عرسها.

ـ وهنا قبر عطية.

يتذكرون عطية خارجًا من صلاة الفجر يتوكأ على عصاه وثمانين عامًا، يستوقفه متخاصمان نزغ بينهما الشيطان، يحول بينهما فتصيبه في مقتل طعنةٌ أرادها أحدهما للآخر.

ـ اختفى محيميد، فص ملح وذاب، محمد ولد عطية ما ترك مكان وهو يدور عليه، بعد سبع سنين رجع من صلاة الفجر لقي رجّال ملثم جالس على عتبة بيته، ولمن فك لثامه إلا هوّ محيميد اللي طعن أبوه، قال له: إن بغيت تذبحني بأبوك إذبحني وإن بغيت تعفي أجرك على الله، يقولون محمد ولد عطية دخل بيته وجاب موس وحلّق راس محيميد وقال له قوم: عتقتك لوجه الله.

لم يغادروا مقبرة حمد حتى جاء اليوم الذي غزا البحر فيه المقبرة، كانوا كلما حفروا في الأرض شبرًا تراءى لهم الماء يلمع بالملح، ودّعوا آباءهم وأجدادهم والتمسوا منهم العذر إن بحثوا لموتاهم عن مقبرة أخرى.

وكما غادروا مقبرة حمد غادروا مسجد الطوري، كانوا قد حافظوا على الصلاة فيه، ولم يكن قد تبقى فيه غير محرابه وجدارٌ يمسك به المحراب كلما اراد أن ينقض تشبث به فأقامه، وكان الملح يزحف صوب المسجد، حتى غدوا إذا ما وقفوا للصلاة لمع زجاجه تحت أرجلهم وإن رفعوا من سجود تلألأت حباته فوق جباههم، وأفاقوا يومًا فلم يجدوا المحراب ولم يجدوا الجدار الذي كان يريد أن ينقض، صلوا حيث انتهى بهم الحزن عليه، تركوا مواقع سجودهم مخضبة بالدمع وغادروا الرويس القديم للمرة الأخيرة.

اتخذوا لهم موطنًا بمنجاة من الملح وإن حرصوا على ألا تفتقد آذانهم صوت أمواج البحر تتكسر على الساحل ولا تغيب عن عيونهم الشمس وهي تغتسل بالماء في خاتمة النهار.

عرف الرويس «البحارة» حيث اتخذ الراحلون عن بيوت الملح منازلهم، كما عرف من قبل «النزلة» حيث حلّ الموغلون في البداوة والمستغرقون في الزراعة، ومن البحارة والنزلة تناسلت بقية البيوت ترتق المسافة بين منازل الرويس وتؤلف من بين أهلها ما فرقتهم فيه القرى والسواحل والبوادي التي تناسلوا منها.

هكذا نحن أبناء الرويس
نبني بيوتنا بالحجر والطين والخشب والقش والحكايات.
بين كل حجر وحجر حكاية.
بين كل بيت وبيت حكاية.
حكاية للحياة. . . .
حكاية للموت. . . .
وحكاية يتنازعها الموت والحياة حين يصبح الموت صنو الحياة فلا يعرف أحد بينهما فرقًا في الطعم ولا اللون ولا الرائحة.
الجدران حكايات. .
عتبات البيوت حكايات. . . .
الأسقف، الأبواب، الشبابيك. .
حكاياتٌ معلقة على الجدران
حكاياتٌ تتدلى من الأسقف
حكاياتٌ تسند ظهرها إلى البحر، وأخرى تذرع السهول الشرقية وتنفض عن ملابسها الغبار
آباؤنا حكاياتٌ نسجها الأجداد

نحن حكاياتٌ من نسج الآباء.
نحكي كي لا نموت
نحكي كمن ينسج لنفسه حياة تبقى بعد موته. .
نحكي كي نموت، حين نموت، كما نريد
ألف ضفيرة من الإنس والجان والملائكة والشياطين. .
ألف ضفيرة من السواحل والجزر والشعاب والأودية والنخل والسدر والطلح. .
ألف طريقة للحياة. . .
وألف طريق إلى الموت. .

سنوات عمره التي شارفت على السبعين لم تُشْفِه مما ينتابه كلما أسلم عينيه للنوم، يراهم يلفّونه في قماش أبيض، يحملونه على نعش ويهمون بدفنه حيًّا:

ـ والله إني أصحا والغبار يملا صدري.

يتذكر كيف دفنوا أمه حين كان في الخامسة من عمره وهي نائمة، يتذكرهم يضطربون حول خبائها، أخته تصرخ: ماتت، وخاله يجهش بالبكاء، غير أنهم حين تركوه يدنو منها لم يرَ دمًا، رآها مغمضة العينين، ثم رآهم يدفنونها نائمة:

يستغرق في الضحك حتى يظهر آخر ضرسين تركتهما له الأيام:

ـ أنا شفت قبلها أبوي الله يرحمه، يوم رجعوا من الغزو شايلينه مضروب بسيف والدم يشخب من جنبه، وبعدها قالوا مات ودفنوه، وشفت الغنم يوم يذبحونها. . . موت من غير دم ما مر عليّ قبل كذا.

يغالب ضحكةً يبدو أنها كانت في الأصل بكاءً انحرفت به السنوات حتى اشتبه بالضحك، يتذكر تلك السنوات التي مرت عليه يقاوم النوم خشية أن تغفوا عينه فيدفنونه حيًّا.

هوى على عتبة البيت فانفرطت أمعاؤه التي كان يلفها في طرف إزاره، صرخت زوجته وحالت بين طفليها وهول ما رأت، ونادى منادٍ في طرف القرية التي كانت حاضنة البحر أنْ قد ذبح ولدُ إبراهيم شيخَ القرية.

لم يسألوا ولد إبراهيم عما بينه وبين الشيخ حين عاجله بخنجره وهو يهم بالخروج من قاربه، أضجعوه حيث طعن الشيخ وذبحوه كما يذبحون الشاة، ثم التفتوا فوجدوا الشيخ قد بلغ باب داره حيث هوى وانفرطت أمعاؤه، زوجته كانت تلمّ ما انفرط منها بيد وتذود طفليها عن دم أبيهما بيد.

يقولون إن أحدًا لم يعرف ما حمل ولد إبراهيم على قتل الشيخ، ويقولون بل هم نفر من جماعته نقموا عليه ما آثر به نفسه من مكانة يرون أنفسهم أولى بها فأغروا ولد إبراهيم وقد جاءهم خاطبًا: دم الشيخ صداق ابنتنا.

ويتذكرون كيف أن أرملته سرت بطفليها، ولمّا تنقضِ أيامُ عدتها، ليلًا تتبع آثار قافلة سمعت أنها مغادرة إلى جدة، لا تبعد عنها فتتوه ولا تقرب منها فيعيدونها من حيث جاءت، حتى إذ رأت منازل الرويس مال قلبها إليها فمالت عن طريق القافلة واتخذت من الرويس وأهل الرويس سكنًا لها.

ـ عيال هذا الزمان ما عاد فيهم خير، مدري متى يعرفون علوم الرجال؟

وأشار لابنه الذي لم يتجاوز السادسة من العمر أن يضع دلة القهوة من يده اليمنى ويحملها باليسرى، كي يمد فنجان القهوة بيمينه للضيف الذي أراد أن يخرج صاحب البيت من حرجه:

ـ يا شيخ الدلة ثقيلة ما يقدر يشيلها بيسراه.

ـ كنت في عمره لمّن مديت الفنجان بيدي اليسار، صرخ أبوي رحمة الله عليه: حط الدلة والفناجيل، حطيتها، قال لي: هات يدك، مديت له يدي اليمين، قال: هات اليسار اللي مديت بها الفنجال للرجال، أعطيته يدي اليسار، وما دريت إلا وهو غارزها في الجمر، قال له الضيف اللي كان عندنا: يا سعد بتعطب يد الولد، قال له : تنعطب يسراه ولا يمد بها الفنجان.

يمد يده للرجل الجالس أمامه وعلى ظاهر كفه آثار حروق لم تستطع خمسون عامًا أعقبت حرق يده في موقد دلال القهوة محوها.

مالت الشمس للمغيب، صنارات الصيد التي نثرها حول قاربه لم تبشره بشيء، أسند ظهره للسارية وراح يغني:

يا جوهره في بحر واصطلك دار الـشَّـعَـب وايّـس الـبـحـري

حاول أن يتذكر بقية الأبيات فلم تسعفه الذاكرة، كان ابن أخيه يجس صنارات الصيد لعل سمكة علقت بواحدة منها، هتف به:

ـ عايد . . سوّي لنا براد شاهي.

ـ ياعم بغيت اسوّي الشاهي قبل ما تقول لي بس ما لقيت موية، خلصت علينا اليوم، شربناها من كثر الحر.

يروي عايد القصة وفي كل مرة يقسم الأيمان المغلظة على صدق روايته:

ـ طلب مني أعبّي البراد من البحر وأحطّه على النار وإذا فارت الموية ألقّم الشاهي، حسبته يمزح بس قال لي:

ـ سوّي زي ما أقول لك ولا تقول ذيك الكلمة.

يقسم عايد مرة أخرى:

ـ والله ما ذقت شاهي أطعم من ذاك الشاهي، ما كإني مسوّيه من موية البحر.

ـ أيش الكلمة اللي قال لك لا تقولها؟

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.

ـ أستغفر الله العظيم، ما يجوز.

ـ كان ضراب قلم الله يغفر له ويسامحه، قال لي لا تعلم أحد ما دمت حي، وأنا والله ما طريت لأحد هذي القصة قبل اليوم، بس كلكم تعرفونه، عنده خدام يخدمونه.

ـ الله يغفر له ويسامحه.

ـ تراها أمانة في رقبتك، أسألك عنها يوم الدين.

غادر، طواه الأفق الذي جاء منه، مدّ يده للطفلة التي كانت ترتعد خوفًا إلى جواره، تهمس وهي تشير إلى الأفق:

ـ أبويا . .

ـ لا تخافين أنا مثل أبوك . .

أمسك بيدها، غالبت بكاء يخنق صوتها:

ـ أبويا . .

بقيت يدها معلقة باتجاه الأفق، مسد بيده على رأسها:

ـ لا تخافين يا حبيبتي، ابوك بيرجع ومسيرك تشوفينه.

كانت الشمس على وشك المغيب، والريح المتذائبة بين المشرق والمغرب لا تخفي رائحة الموت الذي يتنقل بخفة بين كائنات القرى:

ـ سبع سنين ما جاهم مطر.

ـ انقطعت العيون وجفت البيار.

ـ مات النخل وماتت الغنم.

ـ الناس، الناس ماتت من الجوع.

وروى لهم عبد الرحمن قصة الرجل الذي حدثه عند البئر:

ـ ذبحنا الجوع، خرجت أنا ورفيق لي ندور على أي شي ناكله، مرت علينا ثلاث أيام ما طب بطوننا زاد، كنت أقوم وأطيح وأناظر رفيقي حالته زي حالتي، قلت في قلبي ما عنّي وعنّه لو مات قبلي آكله، والله من الجوع إني نويت آكله، وتحت قشعة لقينا ذيب لاحق له شاة جلد على عظم، حتى شعر ما عندها شعر، الذيب يا دوب لحق يعض كتفها ومات جنبها، ويا فرحنا أنا ورفيقي فرح بالذيب والشاة، لمينا حطب وشوينا الذيب والشاة وأكلناهم، بعد ما شبعنا قلت لرفيقي أني كنت ناوي آكله لو مات قبلي، ضحك وقال لي:

ـ والله إني كنت ناوي نيتك ويمكن أكثر، بس الله نجاك، تراني كنت أشاور نفسي آكلك وإنت حي.

غابت الشمس، خاف أن تفوته الصلاة، تيمم وصلى، وحين كان يقف للركعة الأخيرة أبصره يحث الخطى باتجاهه يقود طفلة لم تكن تتجاوز الخامسة من عمرها، وقف إلى جواره:

ـ سألتك باللي وجهت له وجهك في الصلاة، إنت متجوز؟

ـ الحمد لله، والله إني متجوز.

ـ وعندك عيال؟

ـ وعندي عيال.

ـ عندك بنات؟

ـ عندي بنات، خير؟

دفع إليه بالبنت التي كانت تتشبث بطرف ردائه:

ـ أجل خذ هذي أخت لهم، والله يعينك عليهم.

وأكمل وهو يحدق في عينيه كمن يريد أن يطلق رصاصة على طريدة:

ـ لو بقيت عندي لحقت إخوانها، ماتوا من الجوع، ربيها، ولمن تكبر إنت وليها، جوزها واحد من عيالك.

قبل أن يفيق من دهشته كان القادم من الأفق يوشك أن يطويه الأفق، توقف قليلًا، التفت إليه، هتف وهو يشير بعصاه:

ـ تراها أمانة في رقبتك، أسألك عنها يوم الدين.

تناسلت جدة خلف السور...

تناسل الملح في الشوارع

والرطوبة في الرواشين

والنساء خلف الأبواب

تناسلت جدة بشرًا وبيوتًا حتى ضاقت بأهلها وضاق أهلها بها..

وجدة التي أصبحت لا تطيق صبرًا على البقاء داخل السور لم تكن لتطيق حياة خارج ذلك السور..

كانت كلما اشرأبت أعناق من فيها من على شرفات السور ومدوا بصرهم إلى الأفق وتراءى لهم في البحر غزاة وفي البر بدو سارعوا يحكمون إغلاق بواباتها مستعيذين بالله من شياطين البر والبحر، يترقبون موتًا يهبّ من إحدى الجهات الأربع يأتيهم في هيئة بدو تهب بهم الرياح أو غزاة يقذف بهم الموج..

وحين شعرت جدة أن الله صرف عنها غزاة البحر ودانت للزمن رقاب البدو تجاسرت قليلًا فبعثت رسلها يجوبون الأرض من حولها، كلما اطمأنوا إلى منزل أبلغوا من وراءهم

فارتحلوا إليه حتى بلغت جدة الرويس فاتخذته منزلًا من منازلها يستعيضون به عن بيوت خلف السور ظلت قرونًا تتوسد الملح وتلتحف الرطوبة:

ـ كيف الجو يا حمتو؟

ـ والله تمام، هوا يرد الروح.

ـ والبدو؟

ـ يا شيخ مساكين، غلابى في حالهم.

زحفت جدة نحونا..

أولئك المترفون الذين فروا من ضيقها ورطوبة أزقتها اتخذوا من الرويس منتجعًا لهم...

بنوا بيوتهم في الفسحات التي كان آباؤنا قد تركوها حرمًا لبيوتهم تركض فيها الريح والكلاب التي لم تكن ضالة...

ولم تكن بيوتهم تشبه بيوتنا، كنا نراها تنتصب قصورًا بين صندقات الفقراء وأكواخ اليتامى وبيوت الطين والحجر...

كان آباؤنا يتميزون غيظًا وهو يرون نوافذ هذه القصور تدخل بيوتهم بدون استئذان، وكانت أمهاتنا يعشن ما يشبه الفضيحة...

هتكت المدينة ستر بيوتنا..

والقرى التي نصبنا في أفنيتنا قبورها باتت تئن من الغيظ، وكنا نسمع دمًا يغلي في عروق أجدادنا الذين كانوا يتسرَبون إلينا في الحكايات، ولم يعد آباؤنا يرفعون صوتهم جهوريًّا وهم يروون لنا ذكريات الصحراء التي كانت ميدانًا تلعب فيه الريح والروح معًا.

كانت الرويس قبلهم حمى فأصبحت بعد انتقالهم إليها حمى مستباحًا...

والقبائل التي كانت مستعدة أن تلج بوابة الموت اختيارًا لو داس غريب حماها طأطأت رأسها أمام الغزاة حين تذكرت أنها تنزل في غير أرضها وتعيش في غير زمانها...

ازداد الرويس وحشة وتحولت حكايات الآباء عن الأجداد إلى كوابيس، وأصبحنا نرى آباءنا يستيقظون منكسرين صباحًا كأنما هم عائدون من قرى طردتهم من مجالسها، مثلما كنا نراهم يعودون منكسرين مساء من المدينة التي كانت تمنّ عليهم بفتات موائدها ثم تغسل شوارعها من أثر أقدامهم حين يغادرون وتغلق خلفهم بوابة سورها.

زادتنا البيوت التي زحفت نحونا بعدًا عن المدينة..

كشف غنى أهلها عن فقرنا..

تحضرهم عن بداوتنا..

حتى أجساد أطفالهم، التي تبدو مترفة وبشرتهم التي تخالط بياضها حمرة، كشفت أننا ورثنا عن أجدادنا أجسادًا نهشتها ذئاب مستترة ولوحتها شمس غير تلك التي تطل على المدن، وجلودًا جففها الفقر فالتصقت بالعظام.

كنا نحمل جنازة الرويس..

آخر ذئب ظل يعوي وحيدًا في البرية..

آخر بئر تدثر بتراب الوادي ومات ..

آخر نخلة هوى جذعها فهوت معه قلوب من كانوا يستظلون بظلها حين لم يعد لهم فوق الأرض ظل..

كنا نحمل جنازتنا حين لاحت لنا في الأفق المدرسة.

يوم أن بدأوا يشيدون مبناها لم نكن نظنها سوى قصر جديد لأحد الغزاة القادمين من قلب جدة، كنا نتحسس جرحًا جديدًا يتفتح في صدور آبائنا وحجابًا جديدًا تضيفه أمهاتنا إلى وجوههن التي سفعتها الشمس ومسافة جديدة ترسمها جدة بين قصورها وبيوتنا المسكونة بالقش والطين والفقر.

ويوم أن فتحت لنا المدرسة أبوابها ولجنا عالمًا مختلفًا، قصرًا من القصور المحرَمة، عرفنا كيف يصعد الناس الدرج وكيف يهبطون، كيف يقعدون على المقاعد ويغسلون وجوههم من ماء ينساب من صنابير مثبتة في الجدران، وكيف يمكن لهم أن يروا فقر بيوتنا من وراء زجاج نوافذهم، كنا نتحسس بأيدينا كيف يمكن للجدران أن تكون ناعمة ملساء وتأخذ الدهشة

بتلابيبنا حين نكتشف كيف أن ملامسة زر في الجدار يمكن لها أن تضيء مصباحًا أو تدير مروحة معلقة في السقف.

وعلى مقاعد الدراسة رأيناهم، أولئك الذين لم نكن نرى غير أشباحهم تلوح خلف نوافذ القصور أو زجاج سيارات آبائهم تترك في أنوفنا بعض الغبار وتنطلق إلى حيث لم نكن نعلم، ذوو الأجساد الطرية والبشرة الناعمة والملابس شديدة البياض والشعر الذي كانت أمهاتهم يمعنَ في تمشيطه كل صباح ويتركن خصلة منه تنوس فوق الجبين، كانوا يجلسون مثلنا على مقاعد الدرس، يقفون حين يدخل المعلم الفصل كما نقف ويرفعون أيديهم للإجابة كما نرفع أيدينا ويتلعثمون حين يفاجئهم السؤال كما نتلعثم.

أصبحت المدرسة بيتًا ثانيًا لنا، قصرًا نسكنه كل صباح، ونعود منه بعد الظهيرة محملين بحكايات جديدة لا تشبه حكايات آبائنا تتحدث عن رجال لا يشبهون أجدادنا، حكايات عن رجال دخلوا النار ولم يحترقوا وأكلهم الحوت ولم يموتوا وسقطوا في البئر ولم تتحطم عظامهم، حكايات عن ناقة يتفتق عنها قلب الصخر وبقرة يتحدث لحمها للناس بعد الذبح وحمار يعود للحياة بعد أن شبع موتًا، وسفن ترسو فوق قمم الجبال، وقرى تهب عليها الريح والنار، وقرى يغرقها الماء وقرى ترتفع إلى عنان السماء ثم تهوي على الأرض، ولم تكن الحروف حين ترتسم على الصفحات البيضاء والأرقام ونحن نعدها على أصابع أيدينا إلا حكايات أخرى.

لم يعد آباؤنا وحدهم من ينسجون لنا في المساءات

عالمًا مدهشًا من الحكايات، ولم يعد طيف أجدادنا وحدهم يسكن أحلامنا حين نأوي إلى النوم، أصبح لنا في المدرسة آباء جدد يخضبون عالمنا بالدهشة وأصبحت تسكن مناماتنا مدن لم تأت على ذكرها روايات الآباء، وعن قرى لا تعدو فيها الذئاب، وعن أنهار تفيض بالماء والورد والتفاح.

وازددنا افتتانًا بآبائنا الجدد، هؤلاء الذين كانوا يتيحون لنا فرصة أن نشاركهم السكن في هذا القصر الجديد الذي كنا نظن أنهم يسكنون فيه، ويخلقون لنا بحكاياتهم عالمًا كنا نغمض عليه أجفاننا فلا نعود نرى الرويس وأكواخه ولا قصور الغزاة القادمين من جدة ونوافذهم الزجاجية.

وألفنا غرابة آبائنا الجدد، هؤلاء القادمون من أرض لا نعرفها، يلبسون ثيابًا لا يلبس مثلها آباؤنا ويتحدثون بلسان لم نسمع آباءنا يتحدثون به، معهم كنا نعبر حقول القمح ونقطف كروم العنب ونعصر زيت الزيتون ثم نقف على عتبة الدهشة وعيوننا مشدودة إلى صخرة بيت المقدس معلقةً بين الأرض والسماء.

لم تفد إلينا المدرسة من البادية كما كان يفد إلينا من تبقى من أهلنا متلفعًا بكفن البداوة، لم تهبط علينا من المدينة كما كان يهبط الغزاة من أهل جدة، لم تنكر علينا تحضرًا لم يثبت خطونا نحوه ولم تزدر فينا بداوة لا تزال عالقة بأردانا، جاءتنا المدرسة من أرض بعيدة وتقبلتنا كما نحن، وضعتنا على مقعد واحد مع من كنا نرى في عيونهم نظرة ترفُّع عنا، كأنما تنزَلت علينا من سماءٍ رأتنا ذات مساء نبكي ونحن

نحمل جنازة الرويس، منحتنا مناديل نجفف بها الدمع وعيونًا نرى حين نغمضها حقلًا واسعًا تركض فيه أحلامنا وأوهامنا بعيدًا عن الرويس وأهله، بعيدًا عن آبائنا المترنحين بين القرية والمدينة، بعيدًا عن أجدادنا الذين تدثروا ببداوتهم وماتوا.